

رؤى من القرآن مستنيرة بمستقبل الإسلام

الأستاذ نجيب بوحنيك

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

لا محالة أن الله ضمن البقاء والاستمرار لبنا الثنين.. ولا محالة أيضا أنه ضمن له الاستخلاف والتكبير والظهور على غيره من الأديان.. وهذا مما بينه في نصوص وحيه : من آيات القرآن الكريم وكلام نبيه محمد سيد المرسلين.

وعند رجوعي للنصوص الواردة في هذه المسألة من الوحي العظيم.. وقفت على آيات يبشر الله من خلالها بصورة واضحة صريحة على أن المستقبل للإسلام، وهي قوله -سبل في علا-: يريدون أن يطفنوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون*.

فعرزعت سمعتنا بالله- أن أقف وقفه مثنائية عند هذا السياق القرآني، وتجليته الحقيقة الكبرى التي تضمنها.. في هذا البحث المتواضع تحت عنوان :

رؤى من القرآن والسنة مبشرة بمستقبل الإسلام.

ضمن النقاط الآتية :

1/ مواضع ورود هذا السياق من سور القرآن الكريم :

ورد هذا السياق في مواضع عديدة من سور القرآن الكريم مرتبة على النحو الآتي :

أولا : سورة التوبة [الآية : 32، 33]

قال تعالى : يريدون أن يطفنوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

ثانيا : سورة الفتح [الآية : 28]

قال تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا .

ثالثا : سورة الصف [الآية : 8 ، 9]

قال تعالى : يريدون ليطفنوا نور الله بأقوامهم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

2/ المعاني التبشيرية العامة لهذا السياق القرآني :

لقد تضمنت الآيات السابقة أساليب عديدة توحى في معناها العام على أن الله - عز وجل - سيمكن لدينه الإسلام - ويظهره على جميع الأديان الأخرى.. وتكون خاتمة حكم هذه المعمورة به.. وهذه الأساليب من خلال السياق القرآني هي : نور الله.. ويأبى الله إلا أن يتم نوره.. والله متم نوره.. وليظهره على الدين كله..

قال ابن عاشور رحمه الله- : قوله : "يريدون أن يطفنوا نور الله... استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب. يكثف ما يصررونه للإسلام من العبادة، والتألب على مناداة النير، حين تحقوا الله في انتشار وظهور، فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم، فالضمير في قوله "يريدون" عائد إلى "الذين أوتوا الكتاب".

...و إضافة النور إلى اسم الجلالة إثارة إلى أن محاولة إطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مراتهم.

و الإباء والإبابة : الاستناع من الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من المحاولة محمول على فعل وهو يمنع منه، لأنهم لما حاولوا طمس الإسلام كانوا في نفس الأمر محاولين إبطال عراد الله تعالى. فكان حالهم. في نفس الأمر، كحال من يحاول من غيره فعلا وهو يأبى أن يقطعه⁽¹⁾.

وقال في شرحه لسورة الصف : وإضافة نور إلى اسم الحلال إضافة تشريف. أي نورا أوقده الله. أي : أوحده وقدره فما ظنكم بكلمة⁽²⁾.

و الإتمام في قوله : "إلا أن يتم نوره". مؤذن بالزيادة والانتشار وذلك لم يقل : "ويأبى الله إلا أن يبقى نور"⁽³⁾.

و قال في شرحه لسورة الصف : "و الله متم نوره" : والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام، والتمام هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية. فتمام النور : حصول أقوى شعاعه وإتمامه إمداد الله بما يقوى شعاعه⁽⁴⁾.

و "لو في ولو كره الكافرون" اتصالية، وهي تفيد المبالغة بأن ما بعدها أجدر بانتفاء ما قبلها لو كان منتفياً، والمبالغة براهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بإثار تلك الكراهية، وهي الثأب والتظاهر على مقاومة الذين وابطالهم. وأما مجرد كراهيتهم فلا قيمة لها عند الله تعالى حتى يبلغ بها، والكافرون هـ اليهود والنصارى⁽⁵⁾.

و قد اختلف في معنى "النور" الوارد في الآية على أقوال :

قال السدي : المراد بالنور هنا الإسلام، وقال الضحاك هو محمد -صلى الله عليه وسلم- وقال الكلبي هو القرآن. وقال بعض المغررين المراد بالنور الدلائل على التوحيد ونبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- لأنها يهتدى بها إلى الحق في العقليات، كما يهتدى بالنور في رؤية الحسيات⁽⁶⁾.

و قد رجح محمد رشيد رضا بين هذه الأقوال فقال : "ونختار هنا القول الأول وهو دين الإسلام بالمعنى العام الشامل لكل ما جاء به رسل الله، ولاسيما دين التوراة والإنجيل والقرآن. وقد كان كل منها نوراً لأهله في الزمن الذي نزل به بقدر حاجتهم حتى إذا نزل القرآن كان هو النور الأعظم الكافي لبداية جميع البشر إلى آخر الزمان⁽⁷⁾.

ثم بين رحمه الله -وجه المفارقة بين "و الله متم نوره" في سورة الصف، و"ويأبى الله إلا أن يتم نوره" في سورة برادة، فقال : ثم إن بينهما فرقاً وهو التعبير في آية سورة الصف بقوله : "و الله متم نوره" وفي سورة برادة بقوله : "ويأبى الله إلا أن يتم نوره" والأول : يفيد أنه متمم بالفعل في الحال. والثاني : وعد بأن يتمه في المستقبل، فبجتماع منيما إثبات هذا الإتمام في الحال والاستقبال، فهو النور التام الكامل الذي لا ينطفى بالقيول والقال. بل يبقى مشرقاً إلى أن يأتى الله لهذا العالم بالزوال. ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق من شأنه أن يرتاب فيه الناس، أكد الله تعالى بما لم يؤكد به الخبر الأول لأن صدقه مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، ونأهيك بقوله : "ويأبى الله إلا أن يتم

نوره" أي أنه لا يرضى ولا تتعلّق برأفته بشيء في هذا الشأن إلا شيئاً واحداً وهو أن يتم نوره فلا يجعل في قدرة أحد أن يطفئه.

و الآية تشعر بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له سيحاولون في المستفيل إطفاء هذا النور كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكملته بوجيه إليه وبيانه له. وهذا ما وقع من قبل... وأطفعه الحروب الصليبية ومقدساتها، وما هو واقع الآن، فإن دعاة النصرانية (المبشرون) من الإفرنج يغتفون في الطعن على الإسلام والقرآن والنبي -صلى الله عليه وسلم- في كل بلد أليم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز (8).

و قد بين ابن عثور سرّاً تذييل آية براءة والصفاء بقوله : "ولو كره الكافرون" فقال : "والله منم نوره" على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققة كان سياقياً في صورة الأمر المفروض نيكماً... وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يظن انقضاء تمام النور معيها، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحدائهم العرافيل وتصليل المتصددين للاهتداء وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والكيد والإضرار... وسئل لفظ "الكافرون" جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

و لكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين ويتجه على هذا أن يكون الاهتمام بذكر هؤلاء بعد (لو) الوصلية لأن المقام لإبطال مرادهم إطفاء نور الله فإتمام الله نوره إبطال لمرادهم إطفاءه (9).

و قد عقب الشهيد -سيد قطب- عن قوله تعالى : "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم".

فقال في سورة التوبة : "إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر - وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر- إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هذا الدين، وفي الدعوة التي تتطرق به في الأرض، وفي المنهج الذي وسوخ على وفقه حياة البشر... يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.."

فهم محاربون لنور الله. سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وقتن، أو بما يحرصون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا في وجهه- كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

و هذا التقرير - وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هو كذلك بصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله⁽¹⁰⁾.

وقال في سورة الصف : "ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى للحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلنا نغيران عليه أو نؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جبل من الأجيال. حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض".

...و هذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : "هذا سحر مبين" .. وينسون ويكذبون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بانسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنقحة من أفواههم وهم الضعاف الميازيل!⁽¹¹⁾.

و عقب على قوله : "ويأبى الله إلا أن يتم نوره" في سورة التوبة، فقال : "وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل، في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كرد الكافرون.. وهو وعد نطمئن له قلوب الذين آمنوا؛ فيدفعهم هذا إلى المضى في الطريق على المشقة والأواء في الطريق؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين.. كما أنه يتضمن في شأناه الوعد لبؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان"⁽¹²⁾.

وعقب على قوله : "والله متم نوره" في سورة الصف فقال : " .. وصنق وعد الله، أتم نوره في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحنود مرسومة، تترسمها الأجيال لإ نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع. وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام

دينا يحبونه، ويجاهدون في سبيله. ويرضى أحدهم أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيفة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما نزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين وتنبض وتنفض قائمة على الرعم - من كل ما جرت على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتكوير وتشريد وضل سبيلهم من نور - لا يمكن أن تطفئه الأفواه. ولا أن تطمه كذلك النار والحديد. في أيدي العبيد! وإن حيل لتطاعة الجبارين، وللإطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بلغوا هذا الهدف العبيد! (117).

قال ابن عاشور : وقوله تعالى : هو الذي أرسل رسول الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. بيان لجملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره بأنه أرسل رسوله بهذا الدين. فلا يريد إزالته. ولا يجعل تقديره باطلا وعساف. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.

و في قوله : هو الذي أرسل رسوله صيغة قصر. أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يتوكل معانديه بظفوفه.. واجدادهم بعد الوصول : للإيماء إلى أن مضمون هذه الجملة التي بينت عليها هذه الجملة وهي جملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

و عثر عن الإسلام بالهدى ودين الحق تنويها بفضله. وتعريضا بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

وفعل الإظهار إذا عُدِّي به (على) كان مضمنا معنى النصر، أو التفضيل. أي لينصره على الأديان كلها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها. ومنه المظاهرة أي المناصرة (118).

و اللام في **تُظهِرُهُ** لتعليل فعل أرسل ومتعلقته، أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة ولذلك أكد به كلمة لأنه في معنى الجمع.

و معنى **يُظهِرُهُ** يُعَيِّنُهُ. والإظهار : أصله مشتق من ظير بمعنى بدأ. فاستعمل كناية عن الارتقاء الحقيقي ثم أطلق محذرا عن الشرف فصار **أُظهِرُهُ** بمعنى أعلاه. أي يُشرفه على الأديان كلها (119).

و تعليل ذلك بقوله ليظهره على الدين كله إعلام بأن الله أراد ضمور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع

والخفت في أول أمره وأستمر زماناً طويلاً حتى تنصرت قسطنطين سلطان الروم، فلما أخبر الله بأنه أراد اظهار دين الإسلام على جميع الأديان علم أن أمره لا يزال في ارتداد حتى ينفذ أمره.

و الاظهار : النصر ويطلق على التفضيل والازلاء المعنوي.
و التعريف في قوله على الدين تعريف الحسن المفيد للاستغراق، أي ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر الله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرضون لأهل الإسلام.

و يظهر ان لفظ "الدين" مستعمل في كلا معنييه : المعنى الحقيقي وهو الشريعة، والمعنى المجازي وهو أهل الدين كما تقول : دخلت فريضة كذا وأكرمته، فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعاً وادبياً، وأصلح بجميع الناس لا يخص أمة دون أخرى ولا جيلاً دون جيل⁽¹⁶⁾.

قال محمد رشيد رضا : وأظهره... جعله فوقه مستغنياً عليه، والاستغلاء هنا بالعلم والحجة، أو السيادة والغلبة، أو الشرف والعزلة، أو بها كلياً، وهو المختار⁽¹⁷⁾.

و قد علق الشنيد بن قنبل على قوله : ليظهره على الدين كله.

فقال في سورة التوبة : والله سبحانه بعث قضاة يظهر دين الحق الذي أرسل به رسوله على الدين كله بيننا السؤل الشامل العاد... ان الدنيا لا ستكون لله وحده، والظهور سيكون للمسيح الذي تكلم فيه النبوة له وحده... وقد نطق هذا مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحلقه ومن جاء بعده فترة طويلة من الزمان، وكان دين الحق أظير وأغلب؛ وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة لله تحاف وترجف ثم تخلق أصحاب دين الحق عنه؛ خطوة فخطوة يفعل عوامل داخلية في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى، المتوعدة للإنانبي، التي أخذنا عنها اعتادوا من الوثنيين وأهل الكتاب سواء.

و لكن هذه ليست نهاية المطاف... ان وعد الله قائم، ينتظر العصاة المسلمة، التي تحمل الزاية وتمضي مبتدئة من نقطة البدء، التي بدأت منها خطوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحمل دين الحق ويتحرك بقول الله⁽¹⁸⁾.

وقال في سورة الفتح : فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرا على العمل، والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب! (19)

وقال في سورة الصف : وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعده الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهزابل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

و لقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاضيين بيا على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعيا اليهود والنصارى. وكانت تطمئنا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الوائفين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله. (20)

بعد هذا العرض نستخلص المعاني الآتية :

1/ إن إضافة نور الله -الإسلام- إلى اسم الجلالة "الله" فيه إشارة إلى أن أي محاولة لإطفائه وطمسه هي من باب العبث، وهي صورة بانسة من قبل الضعاف المهزابل.

2/ إن عملية إتمام الدين مضمونة بزمان الحال وزمان الاستقبال. فقولته : "والله متم نوره" يقتضي إتمامه بالفعل في الحال، وقوله : "و يأبى الله إلا أن يتم نوره" يقتضي إتمامه في الاستقبال. فيجتمع للإتمام زمانان : الحاضر والمستقبل.

3/ إن ضمان عملية الإتمام لهذا الدين يعتبر بمثابة وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا.. فيحفظهم على المضي في الطريق رغم ما فيه من مشقة وحرب وكيد وتكليل وبطش شديد.. لاسترجاع أمجادهم والتعمين لدينهم.

4/ إن علة الإرسال لدين الله هي إظهاره على جميع الأديان. وفي هذا إعلام من الله لجميع الخلق أن لا يفكروا أو يطمعوا في إيقافه أو صدده.. لأن وعده بالإظهار يبقى في الازدياد إلى أن يتم المراد.

5/ إن عملية الظهور لهذا الدين تحققت مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.. ولا تزال لهذا الدين أنوار يظهر فيها في الزمن اللاحق - بإذن الله - تحقيقاً لوعده مهما بلغت قوة الكيد والتضليل.

فهذه المعاني المستخلصة من هذا النص القرآني يجب أن تكون حافزاً للمؤمنين الواثقين بوعد ربهم أن المستقبل سيكون لهذا الدين مرة أخرى بحكم واقع الحياة في جميع نواحيها.

3/ موقف المسلمين مما بشر الله به نبيه الكريم من غلبة الإسلام والمسلمين :

إن هذه المبشرات تزيد المؤمن يقيناً بأن المستقبل للإسلام.. ولا تجعله يخذل إلى الكسل والذعة، بل تحفزه على الجهاد والمكابدة من أجل تحقيق ما وعد الله به رسوله الكريم.

و في هذا المعنى يقول الشيخ القرصاوي : أن المبشرات بمستقبل الإسلام، التي ذكرناها، لا ينبغي لنا أن نكفل عليها، وننام على أذاننا، ونخذل إلى الذعة والكسل، ومنتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبدله، وجهاد نمارسه، وعمل نؤوب نقوم به في جوانب حياتنا كلها، نقوم ما عوج منها، ونصلح ما فسد، ونبني ما تهتم، ونقوي ما ضعف، ونكمل ما نقص، بروح المجددين، لا بعقلية المقلدين... نستلهم تراثنا، ونجعل منا را يهديننا، لا قيذا ينقل حركتنا، ويعوق انطلاقنا.

نقتبس الحكمة من أي وعاء خرجت، فلا نتقيد بمدرسة إسلامية واحدة، ولا نلتزم مذهبا واحدا لا نخرج عنه، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب، في ضوء القواعد المتفق عليها، رأتين المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات إلى الكليات، والفروع إلى الأصول... إن الرسائل لا تتنصر وحدها، إنما تتنصر بأهلها، والحق لا يعلو وحده، إنما يعلو وفق سنن الله - بذعائه ورجاله الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص.

... قلنمض إن على بركة الله عاملين مصممين، في صدق لا يعرف الزيف، وثبات لا يعرف التردد، وعزم لا يعرف الكلال، ويقين لا يعرف الشك، وأمل لا يعرف القنوط، وجهاد لا يعرف القعود. و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبنا وإن الله لمع المحسنين. [العنكبوت : 69] (34).

وقد ذكر النبي - سيد قطب - عدة حكم لاستبطاء النصر للإسلام والمسلمين فصلها في قوله الأتي : إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور . [الحج : 38].

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم. وعن يدافع الله عنه فيبوع مفعول حتما من عدوه، ظاهر حتما على عدوه... فقيم إذن بأن الله يقاتل؟ وفيه إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وقيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح. والنجدة والمشفة، والتصحية والآلام... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة... والذي ندرسه نحن الآن من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من القتلابة الكفار. الذين يجلسون في استرخاء، ثم ينزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء، ليمرر عليهم الصلوة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كما سبغ الأذى ووقع عليهم الاعتناء! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يترتوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحماتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة والخبرة التي يدرسونها للموقعة، والسلاح الذي يطمنون إليه وهم يواجهون الباطل بمرسل سلاحه ويريدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

فقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم تضحيهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستفظ كل الطاقات المنحورة فيها كما تستفظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة الموحدة. عندئذ تتحفر كل خلية بكل ما رزق فيها من استعداد لتؤدي دورها؛ وتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، وتؤدي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تطوي عليه؛ وتصل إلى كمال ما هو مقدر لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استنقاذ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفير كل استعدادها، وتجميع كل طاقاتها، كي يتم نموها، ويكمل نضجها، وتتينا بذلك لحمل الأمانة العظيمة والتقوم عليها.

والنصر السريع الذي لا يكف عناء، والذي ينتزل هينا هينا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لا يحفرها ولا يدعوها، وذلك فوق أن النصر السريع الهين للذين سيول فقدانه وضياعه. أو لا : لأنه رخيص الثمن لم يتبدل فيه تضحيات عزيزة، وثانياً : لأن الذين نالوه لم يقرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تضح طاقاتهم وتحت كسبه، فهي لا تتحفر ولا تحشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوحدانية والتربية العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتفقر، ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم، ومن الفرح والغم، ومن الأطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفتاء في العقيدة والجماعة والتسيق بين الاتجاهات في شأنا المعركة وقيلبا وبعدها وكثف نغمة الضعف ونغمة القوة، وتغيير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقود عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله ومن أجل غيره مما يعنده الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ ولم يجعله أمانة تبيط عليهم من أسماء بلا عناء. والنصر قد يبطل على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدنا الله :

قد يبطل النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تتضح بعد تضحياتها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفر كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المنخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وحسبنا لعدده قدرتها على حمايته طويلاً.

و قد يبطل النصر حتى يتبدل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستفي عزيزاً ولا غالباً، لا يتبدل هينا رخيصاً في سبيل الله.

و قد يبطل النصر حتى تحرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما ينتزل النصر من عند الله عندما يتبدل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

و قد يبطن النصر لتزويد الأمة المؤمنة صلواتها بالله، وهي تعاني وتتالم وتبدل؛ ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجيا إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتنا على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تتحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

و قد يبطن النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمنعم تحفقه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يزيد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بزينا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى. فأبى في سبيل الله. فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

كما قد يبطن النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في العمار!

و قد يبطن النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضروره زواله، فتظل له جنود في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

و قد يبطن النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ لتقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معيا قرار. فيظل الصراع قائما حتى تتبها النفوس من حوله لاستقبال الحق الظاهر، ولا استبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطن النصر، فتضاعف التضحيات، وتضاعف الألام. مع دعاء الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية⁽³⁵⁾.

الخاتمة: سأوجز في هذه الخاتمة بعض النتائج التي تعتبر بمثابة ثمرة استفراء لآيات القرآن وأحاديث السنة وما تضمنته من رؤى مستقبلية لما سيكون عليه حال الإسلام والمسلمين في قادم أيامه، ومن بين هذه النتائج ما يأتي:

1- إن المبشرات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية توحى بقينا أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دورا في هذه الأرض هو مدعو لأدائه.

2- إن أعداء هذا الدين مهما بذلوا من جهود لإطفاء نور الإسلام، فلا ولن يبلغوا ما أرتوا.. فالنور المرتقب للإسلام لا تملك أي عقيدة أخرى، كما لا يملك أي منهج آخر أن يودي به.. وبذلك فالبشرية بجمليتها لا تملك أن تستغني عنه مهما طال الزمان أو قصر.

3- يجب على المسلمين ألا يخالجهم الشك في أن ما وقع مرة من انتشار نور الله ودخول الناس فيه لأجرا من أنه سيقع ثانية.. وبذلك نحصن قلوبنا من أن يتطرق لها الذي سبب الضربات الوحشية التي تتعرض لها طلائع البعث الإسلامي في كل مكان.

4- إن هذه المبشرات يجب أن تكون حافزا للمسلمين بأن يبذلوا مئاهم الله من فترات وطناقات وجهود، ويرتفعوا إلى مستوى دينهم : في حقيقة إيمانهم بالله وعبادته.. وفي وعيهم بما يدور حولهم وفي إحاطتهم بثقافة عصرهم وحضارته.. وفي اتر اكيمة لطبيعة احياء البشرية وحاجتها الحقيقية المنجددة.

5- يجب على المسلمين أن يوقفوا أنه ينتظرهم : كفاح مزير.. وكفاح طويل. ولكن كفاح بصير، وكفاح أصيل.. وأن يوقفوا أيضا : أن الله معهم.. وأنه متم نورده.. وأنه "غالب على أمره" وأن الله عاقبة الأمور.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(1) التحرير والتوير (171/10-172).

(2) التحرير والتوير (190/28).

(3) التحرير والتوير (172/10).

(4) التحرير والتوير (190/28، 191).

(5) التحرير والتوير (172/10).

(6) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (448/10).

(7) تفسير المنار (149/10).

(8) تفسير المنار (453/10، 454).

(9) التحرير والتوير (191/28).

(10) في ظلال القرآن (1643/3).

(11) في ظلال القرآن (3557/6، 3558).

(12) في ظلال القرآن (3/1643).

(13) في ظلال القرآن (6/3558).

(14) التحرير والتنوير (10/173).

(15) التحرير والتنوير (26/202).

(16) التحرير والتنوير (28/192).

(17) تفسير المنار (10/455).

(18) في ظلال القرآن (3/1644).

(19) في ظلال القرآن (6/3351).

(20) في ظلال القرآن (6/3558-3559).

(21) تفسير ابن كثير ().

(22) في ظلال القرآن (4/2528-2530) - بتصريف.

(23) أخرجه : أحمد في مسنده (4/103)، وقال عنه البيهقي: "ورجل أحمد رجل الصحيح" (6/14).

(24) د/ يوسف القرضاوي : الميشرات بانتصار الإسلام (28).

(25) أخرجه : أحمد (2/176)، وقال عنه البيهقي في مجمع الزوائد : رجاله رجل الصحيح (6/219).

وأورده الألباني في كتابه : سلسلة الأحاديث الصحيحة (8/1).

(26) سلسلة الأحاديث الصحيحة (8/1).

(27) الميشرات بانتصار الإسلام (31).

(28) أخرجه مسلم (4/2215) كتاب : الفتن وأشراف الساعة، باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

(29) الميشرات بانتصار الإسلام (32).

(30) أخرجه مسلم في صحيحه (2/701): الزكاة، باب : الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها.

(31) أخرجه : أحمد في مسنده (4/273)، وقال عنه البيهقي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح (5/189).

(32) د/ يوسف القرضاوي : الميشرات بانتصار الإسلام (35).

(33) أخرجه : البخاري في صحيحه مع الفتح (6/103) كتاب : الجهاد، باب : قتال البيوت.

مسلم في صحيحه (4/2239) كتاب : الفتن وأشراف الساعة، باب : لا تقوم الساعة حتى تعبد شعوب ذا الخصلة.

(34) الميشرات بانتصار الإسلام (99، 100، 101، 105) - بتصريف.

(35) في ظلال القرآن (4/2425-2427).